

تفسير ابن كثير

يقول تعالى : { ولقد ذرأنا لجهنم } أي خلقنا وجعلنا لجهنم { كثيرا من الجن والإنس } أي هبأناهم لها وبعمل أهلها ي عملون فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [إن الله قادر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء] . وفي صحيح مسلم أيضا : من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : دعي النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت : يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم] وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود : [ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد] وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال [هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي] والأحاديث في هذا كثيرة ومسألة القدر كبيرة ليس لهذا موضع بسطها وقوله تعالى : { لهم قلوب لا يفهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها } يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبحانه للهداية كما قال تعالى : { وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة بما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجدون بآيات الله الآية وقال تعالى : { صم بكم عمي فهم لا يرجعون } هذا في حق المนาافقين وقال في حق الكافرين { صم بكم عمي فهم لا يعقلون } ولم يكونوا صما ولا بكمما ولا عميما إلا عن الهدى كما قال تعالى : { ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون } وقال { فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور } وقال { ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقىض له شيطانا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون } وقوله تعالى : { أولئك كالأنعام } أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يقيتها في ظاهر الحياة الدنيا كقوله تعالى : { ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء } أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ولا تفقه ما يقول ولهذا قال في هؤلاء { بل هم أضل } أي من الدواب لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أنس بها وإن لم تفقه كلامه

بخلاف هؤلاء ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد إله ويوجهه فكفر به وأشرك به ولهذا من أطاع إله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه ولهذا قال تعالى : { أولئك كالأئمَّةُ مَعَهُمُ الْجِنُّ وَمَا يَرَوْنَ لَا يُؤْتُونَ رِزْقًا وَمَا يَرَوْنَ }